مالك سمارة *

إيريز بيطون: الشرقي يزاحم الأشكنازي على ساحة الرمز

الأساقيل

على حافة فلقة بيت في أرض إسرائيل
وقف أبي؛
يؤشر إلى الحواف ويقول:
بين هذه الأنقاض
سنبني مطبخًا ذات يوم
وسنطهو فيه ذيل حوتٍ ما
وثورًا برّيًّا
وبين الأنقاض
سنقيم ركنًا للصلاة
حتّى نجد موضعًا
فيه روح قداسة.[1]
بقي والدي على العتبة
وبقيت أنا كلّ أيامي
أرفع الأساقيل
إلى كبد السماء.

* باحث متخصص في الدراسات الإسرائيلية.

١ الشطر فيه تناصّ مع جملة في سفر يحزقيل، الإصحاح الحادي عشر، يخاطب فيها الربّ بني إسرائيل بأن أيّ أرض يدخلونها سيجعل لهم فيها موضع قداسة.

تنقيح الروائح

ماذا تريدين منّي
يا نكهة العرَق.. ويا رائحة الزعفران المرّ
لم أعد ذاك الطفل التائه بين الأرجل
يلعب السنوكر
في مقهى «ماركو»[٢] باللد
الآن يا رفاق
أتعلّم أكل بوظة بلّورية
من سيّارة تطلق أصوات عصافير
وفي المساء
أتعلّم كيف أفتح أغطية
لصناديق موسيقى عتيقة
...
الآن
تعلّمني نسوة بنكهة التوت البرّي
أن أشمّ مجلّدات شكسبير
من القرن السابع عشر
ها هم يعلّمونني أن ألاعب قطّة سياميّة
في صالون مشجّر.

---

٢ لعلها تحيل أيضًا إلى «ماروكو» (المغرب)، سوى أن فيها حرفًا منقوصًا.

تعليق:

ليست لدى إيريز بيطون (١٩٤٢-) ذاكرة بصريّة طويلة الأمد؛ الشاعر الذي ولد في الجزائر، ونشأ في إسرائيل، فقد بصره يافعًا حينما لعب بقنبلة يدويّة، ولم يبصر بعدئذ إلا الفراغ، وما اختزنه من سنواته الأولى في مخيّمات يهود الشرق (التي اتّخذت لاحقًا في ١٩٥٠، بعد هجرة بيطون بسنتين، اسم المعبروت)، وبين شوارع اللد التي استقرّ فيها وعائلته لاحقًا. وفي واقع «المعاناة» الشخصيّة تلك، و«المعاناة» الجمعيّة بوصفه شرقيًّا/سفارديًّا نشأ وسط ثقافة أشكنازيّة مهيمنة، كان شعر بيطون ينزع نحو الواقعيّة؛ مشرعًا على تناقضات الحياة اليومية في إسرائيل بكل فظاظتها، ومحمّلًا بالخفّة والكوميديا السوداء على «ثوريّته»، التي تتعدّى الرسالة المكنونة، إلى الشكل المعرّى من البلاغة والمحسّنات البديعية، والمتحرّر من قيود القافية، وتتعدّى «ثورة الشرقي» في إسرائيل، لتقدّم نفسها بوصفها ثورة «فنّية» على الأدبيّات «المثاليّة» التي واكبت بناء الدولة العبريّة. من هنا، يمكن القول إن ظهور بيطون في المشهد الشعريّ الإسرائيلي كان يوازي صعود بياليك خلال الحقبة التي عايشها؛ تلك المقاربة يمكن أن تختزل في رمزيّتها الكثير من التأريخ: الانتقال من بياليك إلى بيطون يعني الانتقال بين زمنين: زمن «اليشوف» وتأسيس الدولة وصقل هويّة «اليهودي الجديد» -مذوّتة في صورة الأشكنازي الغربي- إلى زمن «إسرائيل الثانية»، إسرائيل «المعولمة»، و«الشرقية» أكثر من أي وقت مضى.

تحفل قصائد بيطون بالمونولوج الداخلي؛ بمساءلة الذات دائمًا، في محاكاة شعريّة/ رمزيّة للصراع الداخلي الذي يعشيه الشرقي بين ماضيه وحاضره، بين انتمائه الثقافي وانتمائه القومي، في بيئة صوّرها أولئك «الرياديّون الأوائل» على أنها أوروبيّة، وهي على رقعة

الجغرافيا والتاريخ ليست إلا امتدادًا لـ«شرقه». من هنا، يتكرر سؤال الهويّة في قصائده، لا سيما تلك التي نشرها في باكورة حياته الشعريّة. وأمام المناظرات التي لا تنتهي بين «الشرقي» و«الغربي»، والاغتراب الروحي بين ثقافتين، صارت قصيدته، تعرف باسم «قصيدة المنفى»، أو «قصيدة الهجرة»، في «إسرائيل الأشكنازية»، التي يبني لها «أساقيل» لا تنتهي نحو السماء، وحظّه منها «العتبات»، كما يصوّر في قصيدته الأولى. رغم ذلك، لا نلمس لدى بيطون قطعًا مع الحاضر، بقدر ما نلمس ترحالًا وتردّدًا دائمًا بين عالمين. نجد في قصائد بيطون، مثلًا، استعارة مكثّفة للمفردات والرموز العربيّة (العرَق، الزعفران)، وكذا في عناوين دواوينه: «هديّة مغربيّة»؛ «كتاب النعنع»؛ لكن لنا أن نقرأ في أخرى أيضًا عملية التطواف الدائم بين الهويّات، والتنقّل الحنيني بين المواطن، كما في ديوانيه: «طائر بين القارّات»، و«طائر مغربي»، ولعلّ في حديثه لصحيفة «هآرتس» ما يصدّق على ذلك، حين يقول: «لطالما تخيّلت نفسي طائرًا ينفصل عن العشّ»[٣]. لكن في الحضور المتكرّر لذلك الطير المتخيّل ما يحيل إلى مقاربة ثانية، مع بياليك مرة أخرى. لا يحاكي الطائر الذي يتخيّله بيطون سارحًا بين القارّات، ولا يبني عشًّا إلا ليفارقه، ذلك الذي يستخدمه بياليك بوصفه رمزًا لـ«العودة إلى أرض إسرائيل» (راجع/ي قصيدة «إلى العصفورة» في العدد الماضي). وكأن في هذا التحوير «ثورةً» معنويّة على رمزٍ مؤسس، على طير بياليك الذي لا يعرف إلا موطنًا واحدًا، هو «أرض صهيون»، ولا يتوق إلا إليها. أو لنقل: كأن صراع «الشرق» و«الغرب» هنا انتقل إلى الرمز؛ كما لو أن «الشرقي» يزاحم «الأشكنازي» حتّى على ساحة المجاز.

3 Eliyahu, Eli. “First Mizrahi to win Israel’s literature prize was wounded by a grenade and healed by poetry.” Haaretz.com. November 05, 2015. Accessed July 01, 2017.
http://www.haaretz.com/israel-news/.premium-1.654350.